

## تاريخ مدينة المدية ونسيجها العمراني إبان الحكم العثماني History of Medea City and its texture in architecture during Ottoman rule

فاتن دريس<sup>\*1</sup>

<sup>1</sup> معهد الآثار، جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، drisfaten@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/04/29 ؛ تاريخ القبول: 2021/05/21 ؛ تاريخ النشر: 2021/06/07

### Abstract

In this article, we tried to present a study a historical and archaeological of the city of Medea After we visited the old casbah. That is in order to shed light on its heritage in spite of the few sources that touched on it compared to studies and researches that touched on ancient cities, such as, Algiers, Constantine and Tlemcen.

After studying its texture in architecture, we find an integrated city, which seems to have different characteristics in other Ottoman architecture.

**Keywords:** Medea history; architecture; casbah; heritage; Historical monuments  
Archaeological sites.

### الملخص

حاولنا من خلال هذا المقال، تقديم دراسة تاريخية وأثرية عن مدينة المدية بعد زيارتنا لقصبتها القديمة وهذا لكي نبرز من خلالها عراقتها بالرغم من قلة الوثائق والمصادر التي تطرقت إليها مقارنة على ما أسيل من حبر على تاريخ المدن العريقة مثل: مدينة الجزائر وقسنطينة وتلمسان، وما يلفت انتباه دارسها أو زائرها نسيج عمرانها العثماني من خلال معالمها التاريخية التي تبدو أن لها مميزات تختلف في عن سواها من العماير العثمانية المنتشرة في ربوع الوطن.

**الكلمات المفتاحية:** تاريخ المدية؛ العمارة؛ القصبة؛ المعالم التاريخية؛ المواقع الأثرية.

\* المؤلف المراسل.

## المقدمة:

لعبت مدينة المدية دورا حاسما سياسيا واقتصاديا واجتماعيا مساهمة بذلك في كتابة تاريخ الجزائر، ولذلك تعتبر من بين أعرق المدن التاريخية والأثرية حيث كانت قبلة لكثير من الزعماء والقادة عبر مختلف العصور، نظرا لموقعها الاستراتيجي الذي يفصل بين الساحل الجزائري والجنوب الصحراوي.

صحيح، أن هذه المدينة بقيت غامضة نوع ما لقلة الوثائق والمصادر التي تطرقت إليها، إلا أنه عند زيارتك لها وتوغلك نحو أحياء قصبها القديمة بالحي المعروف بالروابلي، تعود بك ذاكرتك إلى القصة العتيقة لمدينة الجزائر العاصمة، وتستغرب بذلك وجود التشابه الكبير في نسيجها العمراني، وهذا الأمر يدفعك بشغف حب الاطلاع على تاريخ المدينة للحصول على المادة المعرفية التي تتميز بها عن غيرها من المدن.

جاءت الاشكالية المراد معالجتها في سياق هذا الموضوع، ومفادها كالاتي: ماهي مختلف المراحل التاريخية التي مرت بها مدينة المدية؟ وما أصل تسميتها؟ وهل للمدينة خصائص في نسيجها العمراني العثماني؟ وماهي أبرز عمائرها العثمانية سواء الدينية أو المدنية؟

للإجابة عن الاشكالية والوصول إلى الاهداف العلمية المسطرة والتي ترتبط بسعيينا في استقراء النصوص المادية رغم قلتها وربطها بالواقع لإبرازها من خلال معالمها التاريخية التي لاتزال في صراع من أجل البقاء رغم الظروف الطبيعية والبشرية القاسية عليها، وبهذا اعتمدنا على خطة علمية ضمت ثلاث عناصر:

- أصل تسمية مدينة المدية.
- إطارها التاريخي عبر مختلف العصور.
- النسيج العمراني لمدينة المدية إبان الحكم العثماني.

## I- أصل التسمية:

لقد اختلف الباحثون والمؤرخون، منهم المسلمون والأوروبيون في أصل تسمية "المدية"، فتعددت الروايات في صيغة ونسب وتاريخ تداول هذا الاسم حيث يري بعض من الباحثين أمثال ستيفان قزال، أن الأصل مستمد من كلمة لامبديا (Lambdia)، هي القرية الرومانية التي تبعد بنحو 9 كيلومترات عن المدينة الحالية والدليل على ما عثر عليه من آثار في تلك المنطقة (Gsell, 1977, pp. 4-48)، كما يروى أيضا، أنها كلمة بربرية تعني العلو أو الأرض المرتفعة ومن جهة أخرى يقال وينسب أن أهل المدينة كانوا يصنعون المدية أو المدى وهي السكاكين فنسبت إلى الصنعة التي كانت تُصنع فيها. (اسكندر، 1986، صفحة 19)، ويبدو أن الاسم القديم بقي مستمرا في العهد الإسلامي فحسب رواية ابن خلدون في كتابه في العبر عن أخبار المدية فيقول: «نحضر عثمان بن يغمراسن وبها أولاد عزيز من توجين فنازلها وقام بدعوته فيها قبائل تعرف بلامبديا واليهم تنسب» (ابن خلدون ، 1999 ، صفحة 192)، وفي موضع آخر يقول ابن خلدون: «المدية هو اسم بطن من بطن صنهاجة وقد استولى محمد بن عبد القوي (أيام بني عبد الوادي) على حصن هذا البطن المسمى بأهله ونطق بعضهم بلمدونة والنسبة إليها المداني» (ابن خلدون ، 1999 ، صفحة 192) ، ومن المحتمل، أن يكون اسم المدية غير روماني بل عربي حيث يري ابن خلدون أن الخليفة المهدي، كان قد أمر ببناء حصن وأطلق عليه اسم المهديّة ثم اختصر على ما يراه العرب إلى المدية. (فون مالستان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، 1972، صفحة 134)

## II - الاطار التاريخي:

### II. 1- مدينة المدية خلال العهد الروماني:

يبدو أن مدينة المدية لم تكن موجودة في العهد الفينيقي المبكر أو البوني أي ما بين القرن العاشر قبل الميلاد إلى سقوط قرطاجنة سنة 146 ق.م، وذلك لعدم العثور على أي دليل مادي أثري يثبت وجود المدينة فعلا (سليمانى ، مدينة المدية ونواحيها في العهد

القديم، 1995، صفحة 136)، عكس المدن التي أسسها الرومان كانت تسمى بالمورية القيصرية مثل مدينة الجزائر (Rusguniae)، تيبازة (Upassa)، تنس (Cartenae)، كما أسسوا مدنا أخرى بنوميديا شرقا القطر ووسطه مثل: سور الغزلان (Auzia)، قرب البرواقية (Tamarammaa)، المدية (Lambdia). (بلحميسي ، 2007، صفحة 313)، وفي الوقت التي كانت أوزيا (سور الغزلان)، مركزا عسكريا مهما، تمّ تشييد مباني المدية على سفح نجد مرتفع، يقع بين نهرين وعن طريق هذا النجد يمكن الالتحاق بالغرب أو الجنوب بكل سهولة حيث كانت أوزيا بلدية في البداية ثم جعل منها سبتيموس سواربوس مستعمرة، كما أقام المستعمرون الرومان مدينة رابيدوم (Rapidum)، وهي سور جواب اليوم على منحدر قائم في سهل بني سليمان الشهير بتناراموزا على بعد تقريبا كيلومتريين من مدينة البرواقية. (سليمانى ، مدينة المدية ونواحيها في العهد القديم، 1995، صفحة 153)

ويقال، أن مدينة المدية ظهرت ما بين القرن الأول والقرن الثاني ميلادي حيث كانت مستعمرة تقيم فيها جالية رومانية مع خليط من الأهالي الأصليين لكن ليس لدينا المعلومات الكافية، تؤكد قيام تعايش والوثام بين الجالية الرومانية وأهالي المدينة (سليمانى، تاريخ المدن الجزائرية عبر العصور، 2006، صفحة 151)، ومع هذا هناك دليل قاطع، أن السكان الأصليين للمدية هم الأمازيغ، ذلك أن كثير من أسماء جبال وسهول المدينة هي أسماء بربرية نذكر منها تلاعيش، تمزغيدة، تبحرين، حرييل... وغيرها من المناطق. وقد جاء وصف مدينة المدية في كتاب وصف إفريقيا لأبي الحسن الوزان فقال: «مدينة المدية بناها الافارقة في تخوم نوميديا على بعد ثمانين ميلا من البحر المتوسط...». (الوزان ، 1983، صفحة 41).

لذلك ما حدده ستيفان قزال على المواقع الأثرية الرومانية جميعها تقع خارج مدينة المدية أين يشير إلى مواقع جبلية مختلفة في منطقة تابلاط والبرواقية، وما عثر عليه الفرنسيون

أثناء شروعاتهم في بناء مستشفى داخل المدينة إلا على مزهية عليها صورة امرأة ونقود من البرونز وشاهدا قبرين وناقشة أُعيد استعمالها في قناة المياه لمشتله.

( Pharaon, 1856, p. 139)

## II.2- المدية خلال القرون الوسطى:

الجدير بالذكر، أن التاريخ أيضا، لم يذكر مدينة المدية في عهد بداية الفتوحات الإسلامية إلى أن فُتحت بلاد المغرب كلها حيث أقام الفاطميون دولة لهم في بلاد المغرب بعد أن استعانوا بقبيلة صنهاجة للوقوف في وجه قبيلة زناتة صاحبة السلطة والسيادة على بلاد المغرب بصفة عامة، وبنو زيري من صنهاجة، هم الذين أتاحوا للخلافة الفاطمية سبيل القضاء على نفوذ الأمويين في المغرب الأقصى، لتستمر معونتهم للفاطميين أكثر من أربعين عاما فكانوا لهم العدة والسند القوي.

عندما تمكن الزيري بن مناد من إنقاذ المصالح الفاطمية، وذلك بالقضاء على ثورة أبي يزيد سنة (335هـ-946م) وفتح المغرب الأقصى سنة (344هـ-958م) (الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام، 1965، صفحة 196)، أحرزت صنهاجة مقاما رفيعا ومكانة سامية لدى الدولة الفاطمية وتقديرا لهم أطلق الخليفة يد الزيري بن مناد على ولاية تاهرت وباغايه سنة (349هـ-960م)، وفي الوقت الذي تولى أبو تميم مُعد الملقب بالمعز لدين الله، الخلافة الفاطمية سنة 341هـ، كان الزيري بن مناد الصنهاجي يتولى حكم أشير، الذي يعود له الفضل في بناء المدينة عندما استقل بولاية الزاب سنة 324هـ، بعدها أذن الزيري لابنه بولوجين بخلافة ثلاث مراكز: الجزائر- مليانة - المدية ما بين سنة (350هـ إلى 360هـ). (بلحميسي ، 2007 ، صفحة 314)، وقد اهتم الأمير بلكين بن الزيري أكثر بإصلاحات وتعديلات مجموعة من المدن منها: الجزائر، المدية ومليانة (Golvin, 1957, p. 57)، وبعد وفاته، تولى الأمر بعده ابنه المنصور الذي كان واليا على أشير عندما بلغه خبر وفاة أبيه 373هـ-984م (الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام، 1965،

صفحة 281)، ومع هذا أبي، أن يولى بكتاب ويعزل بكتاب (أبي الحسن ابن الأثير ، 1998، صفحة 415)، وبعد وفاته تولى الخلافة، ابنه باديس الذي كان لا يتجاوز من عمره 12 سنة مقرا عمه يطوفت على ولاية تاهرت وعمه حمادا على ولاية أشير، وفي الوقت التي كانت تعيش فيه مدينة المدية نوعا من الاستقرار، عرفت بلاد المغرب أحداثا وإنجازات حافلة تحت قيادة المرابطين الذين توغلوا بعدها إلى الجزء الغربي الجزائري لتصبح حدود مملكتهم محاذية لدولة بني حماد بعدما افتتح يوسف بن تاشفين مدينة وهران وتنس سنة 474هـ-1080م، ومليانة وجبال الوانشرس وشلف بأجمعها، لكن المصادر التاريخية تبقى صامتا أمام الأحداث التي جرت في مدينة المدية، رغم أن ملك المرابطين امتد من تخوم المغرب الأقصى متخطيا حدود ملوية إلى أسوار مدينة الجزائر فكان الغرب الجزائري تقريبا تحت نفوذ المرابطين لمدة 67 سنة. (الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام، 1965، صفحة 316)

قامت دولة الموحدين لتحكم بلاد المغرب والأندلس بقيادة أبو عبد الله محمد ابن تومرت ، بعدما غاب سلطان دولة الموحدين وانزوى (السيد ، 2007، صفحة 45) ، توفي ابن تومرت والملقب بالمهدي والذي أنشأ دعوته في تأسيس دولته على الدين "أمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر"، بعدها بُويع عبد المؤمن بالخلافة في منتصف رمضان (524هـ-1130م)، شرع هذا الأخير في بسط نفوذه على أنحاء المغرب الأوسط، فتحرك بجنوده سنة (534هـ-1139م) متوجها إلى تلمسان ثم وهران سنة(539هـ-1135م) ثم عاد إلى مركزه في المغرب الأقصى، منشغلا بفتوحاته في الأندلس (الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام، 1965، الصفحات 360-365)، كما تم في سنة (544هـ-1139م) دخول الموحدين مدينة مليانة والمدية، واحتلوا معها الجزائر العاصمة، وبعدها امتلكوا المناطق الغربية اتجهوا نحو الشرق ليغزوا نواحي الوانشرس وعاصمة بني حماد سنة(547هـ-1152م) متوغلين بعدها إلى سطيف وقسنطينة وعنابة، بذلك تمّ للموحدين الاستيلاء على القطر الجزائري كله من

جهاته الأربعة. (الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام، 1965، الصفحات 366-368)،  
(أنظر التعليق رقم 03).

وبعد ضعف الدولة الموحدية أصبحت المنطقة محل صراع بين الحفصيين وبنو مرين والزيانيين، لكن سرعان ما بادر ملوك تلمسان بالاستيلاء على مدينة المدية بما لها من أهمية استراتيجية، ودب الضعف بعدها في دولة تلمسان وأصبح ملوكها في أواخر القرن 15 ميلادي، لا يستطيعون قمع الفتن في ولا منع الأعراب من غزو أعمالهم، فانفصلت المدية عنهم ومالت إلى أمير تنس حيث كان من أقدر من ملوك تلمسان على حماية المدية لأنه الأقرب إليها ويده ما ليس بيد ابن عمه ، وبذلك يظهر لنا جليا، أن المدية كانت مسرحا لمختلف الأحداث التاريخية والصراعات السياسية إلى أن جاء الإخوة باربروس إلى الجزائر وشرعوا في التوسع باسم الدولة العثمانية.

### II.3- مدينة المدية إبان الحكم العثماني:

بعد أن عمت الفوضى في بلاد المغرب ودب الضعف في الدول القائمة (بنو حفص في تونس وبنو عبد الواد في تلمسان وبنو مرين في فاس)، عزم الإسبان على ضرب الإسلام في داره، خاصة بعد إخراجهم من الأندلس سنة 1492م بسقوط غرناطة، وبذلك احتل النصارى المرسى الكبير 1505م ووهران 1509م وبجاية 1510م. (بلحميسي ، 2007،  
صفحة 318)

ضاق حال المسلمين لاسيما بمدينة الجزائر، مما استدعى شيخها سالم التومي وأعيانه الأخوين عروج وخير الدين لإعانتهم على الإسبان، وهذا بعد اشتغالهم في تونس بالحزم والإقدام والجرأة في البحر وإنقاذ المسلمين. (أنظر التعليق رقم 01)

لجى عروج الدعوة وحمى البلاد من خطر الإسبان ليبيع أميراً على بلاد الجزائر بعدها سخط عليهم فغادر الجزائر سنة كاملة ثم ألح في دعوته شيخ سالم التومي، شيخ مدينة الجزائر

وأحمد القاضي، شيخ بلاد القبائل (جرجرة)، لبي مرة ثانية دعوتهم، شرط أن يقاسمه أخوه في غزواته ثم قام بقتل الشيخ سالم التومي ونصب نفسه حاكما على الجزائر.

انطلق عروج في بسط نفوذه داخل البلاد فاحتل مدينة المدية بعد انهزام حماد بن عبيد أمير تنس في المتيحة حوالي 1517م، وبعدها ترك في مدينة المدية حامية عسكرية وجالية أندلسية (Federmann & Baron, 1865, p. 280)، فأصبحت الجزائر منذ سنة (924هـ-1518م)، ولاية تركية مرتبطة بالإمبراطورية العثمانية ملحقة بها وخاضعة لحكام إقليميين، يحملون لقب بيلاياري والباشا والداي، ويتمتعون بقسط وافر من الاستقلال عن الحكومة المركزية بإسطنبول .

في عهد البيلاياري حسن بن خير الدين (1544م-1567م)، جرى تقسيم البلاد الى أربع مقاطعات، الأولى دار السلطان، وهي دارة الامارة ويحكمها الداوي، والثانية بايلك الغرب وعاصمته مدينة مازونة ثم مدينتي معسكر ثم وهران، والثالثة بايلك الشرق وعاصمته قسنطينة، وفي الاخير بايلك الجنوب المعروفة ببايلك التيطري وعاصمته مدينة المدية، وكانت هذه الأخيرة أصغر المقاطعات حيث أدخلت تنظيمات عليها عديدة ما بين 1518 و 1775م، أما عن حدود بايلك التيطري، فكانت من الشمال قبيلة موزايا وبني صالح من البلدة وبني مسعود، وفي الشرق قبيلة بني سليمان وعريب، وفي الغرب قبيلة جندل وأولاد خليفة. (بلحميسي ، 2007، الصفحات 318-320)

عُين على رأس بايلك التيطري ما بين سنتي 1516م و 1775م ثمانية عشر بايا منهم : الباي رجب 1548 م، الباي شعبان 1633م، الباي فرحات 1663م، الباي عصمان الثاني 1763م، الباي علي جانويز 1766م، الباي سفطة 1775م، ولقد أنشأوا بايات التيطري مراكز و فرق تسهل من مهمتهم فكان أول مركزا عسكريا قام به الباي عصمان، يعرف بحوش عصمان بالإضافة أنه كان مخزنا للمؤونة ومنطلقا للمحلة نحو الجنوب في جمع الضرائب، أما ما قام به الباي مصطفى الوزناجي مستفيدا من تجربة الباي عصمان، أنه عزز حوش عصمان فاستبدله بمؤسسة عسكرية جديدة أقامها في البرواقية ونظم مخزن

عبيد ودواير، بل كان باي التيطري، لا يحكم عاصمة المدية وهذا لأن الأتراك جعلوها تحت إدارة حاكم خاص تابع للديوان الأكبر في مدينة الجزائر، وما قلل أيضا من أهمية باي التيطري، أن الحاكم الحقيقي للمنطقة هي عائلة الشيخ مختار لكن الأتراك عرفوا كيف يقرقون هذه العائلة الى صف غربي وصف شرقي، يتناطحان دوما فتارة يستميل الباي إليه الصف الغربي ويستشيريه في شؤون البلاد آنذاك بينما الصف الشرقي يفر إلى الصحراء وتارة يستميل إليه الصف الشرقي فيفر منافسه إلى الصحراء، إلى أن أصبحت هذه اللعبة مألوفة لدى السكان وصارت جزءا من حياتهم اليومية، وما تبع الباي مصطفى الوزناجي من بايات عانوا كثيرا من تمرد القبائل، نذكر منهم: قبائل أولاد نايل وأولاد مختار وأولاد شعيب... ليصبح الأمر أكثر تعقيدا مع بداية القرن الثامن عشر حيث ترك مصطفى الملقب بالهراب منصبه بعد ستة أشهر من الحكم، وعلى كل فإن عهد حسين داي، عرف تغييرا جذريا في سياسة الدولة الجزائرية، فاليهود أصبحوا المستشارين المفضلين بينما عمال الدولة والموظفين القدماء تعرضوا للمصادرة والتغريم والقتل نذكر منهم: الباي محمد الذباح ومصطفى الوزناجي الذي عزل هو آخر ( سعيديوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، 1984، صفحة 77)، ومع قدوم مصطفى بومرزاق سنة (1819م-1830م)، تغيرت الأمور تماما. (أنظر التعليق رقم 02)

## II. 4- مدينة المدية أثناء وبعد سنة 1830:

عملت فرنسا بعد احتلال مدينة الجزائر في توجيه حملاتها على مدينة المدية من أجل إخضاعها، وما يجب ذكره، أن الباي مصطفى بومرزاق لعب دورا حاسما في مقاومته ضد الاحتلال الفرنسي حيث شارك مع جيش قوي من قبائل المدية في معركة اسطاوالي.

▪ الحملة الأولى على المدية ب 10 آلاف جندي: يوم 17 نوفمبر 1830 تحت قيادة كلوزيل أين دخلوا المدية ونهبوها ثم استولوا على موزاية وأعادوا الدخول إلى المدية يوم 22 نوفمبر 1830، وعزلوا الباي مصطفى بومرزاق وعينوا بايا آخر هو مصطفى

ابن الحاج عمر، بعدها عادوا إلى الجزائر (بلحميسي ، 2007 ، صفحة 324)، استطاع هذا الأخير أن يُبرهن بعد مدة قصيرة ولائه للفرنسيين، ففي 27 نوفمبر وقع هجوم على مدينة المدية من طرف الباي بومزراق، جرت معركة دموية أمام أسوار المدينة، كاد أن يتم القضاء على الحامية الفرنسية نهائياً، لو لم يجمع مصطفى بن عمر أهالي المدينة ويُحملهم على مساعدة أسياده الجدد ومحاربة إخوانهم في الدين، ولعلها المرة الأولى التي يقف فيها العرب الى جانب الفرنسيين وكانت عاقبة ذلك وخيمّة.

▪ **الحملة الثانية على المدية:** يوم 29 جوان 1831م تحت قيادة برتوزين ، الواقع أن هذه الغزوة لم تكن سوى غزوة نهب حيث حرق فيها الفرنسيون ودمروا كل ما لم يستطيعوا أخذه ثم عاد الجيش الفرنسي إلى الجزائر وهو يسوق أمامه عددا من القطعان المسروقة.

## II.5- مدينة المدية في عهد الأمير عبد القادر:

بعد الانتصارات التي حققها الأمير عبد القادر في المناطق الغربية الجزائرية (أنظر التعليق رقم 03)، تمّت مبايعته كسلطان على الجزائر، ما أجبر الجنرال دي ميشال على عقد معاهدة صلح يوم 24 جانفي 1834م، سميت معاهدة دي ميشال ، حينها فكر الأمير في ضرورة توسيع دولته من الناحية الشرقية بضم التيطري وعاصمته والاستيلاء على مليانة حتى يتمكن من محاربة الأجانب حيث نزل الأمير على مليانة في 20 أفريل 1835م، مُنصباً أخاه الحاج محي الدين على رأسها ثم دخل المدية فوجدها خاضعة لنفوذ ولي من أولياء الدرقاوة (أنظر التعليق رقم 04)، وعين الأمير عبد القادر في المدينة خليفة له أخاه الحاج مصطفى ثم الشيخ محمد بن عيسى البركاني بصفة دائمة وعين أول قاضي للمدينة هو محمد بن أحمد البصري، بعدها عاد إلى معسكر، لما رأت فرنسا أن الأمير قوى نفوذه واتسعت دولته، عمدت إلى نقض المعاهدة فاستأنفت الحرب من جديد بعد أن عزلت دي

ميشال وعينت الجنرال تريزيل في مكانه سنة 1835م. (بوعزيز، 1996، الصفحات 38-39)

تعكر الجو بين الأمير وبين الفرنسيين، فكان الأمير يغزو القبائل المبايعة لفرنسا وكان كلوزيل يغزو القبائل المناصرة لعبد القادر، وهكذا إلى أن عاد هذا الأخير مرة ثانية إلى مدينة المدية 1836م، وولى عليها محمد بن الحسين لكنه لم يلبث طويلا فانتصر عليه أحد خلفاء الأمير بعدها بُعث محمد التعس إلى بلاط السلطان عبد الرحمن إلى المغرب دليلا على انتصار الأمير في جهاده عليه واعتزاز قومه به ، تطور الوضع شيئا فشيئا، عاد الأمير إلى وادي شلف سنة 1837م ثم إلى المدية وألقى القبض على 80 من الكرغلان وبعث بهم إلى مليانة وفي أثناء إقامته بالمدية استقبل الأمير أعيان البلدة ثم نصب بعد ذلك أخاه الحاج مصطفى، وأبرمت بعد فترة معاهدة أخرى سميت معاهدة التافنة مع ماريشال فالي، وبعدها بادر الأمير عبد القادر من مقر إقامته في المدية مراسلة ماريشال فالي في 18 نوفمبر 1939م على إثر مناقضة معاهدة التافنة محملا الفرنسيين مسؤولية حرق المعاهدة وتسببهم في إشعال الحرب. (سعيدوني ، عصر الأمير عبد القادر، 2000، صفحة 157)

## II.6- الاحتلال الفرنسي لمدينة المدية في 17 ماي 1840م:

قرر الوالي فالي احتلال المدية ومليانة حيث دخل عاصمة التيطري في 17 ماي 1840، فوجدها خالية من أهلها الذين كانوا قد غادروها فعززها وحصنها وترك بها حامية بقيادة الجنرال دوفيفي (Duvivier)، إلى أن قدم إليها الجنرال بوجو Bugeaud يوم 01 افريل 1841، ودخل المعمرون إلى مدينة المدية وضواحيها سنة 1847م، لتصبح بعد سنة 1850م تحت الحكم المدني الفرنسي أين بدأت الجاليات الزراعية تنزل بضواحي المدية مثل: لودي (Lodi) وداميات (Damiette) في جانفي 1853م، هكذا قررت في جوان 1853م أن تكون المدية بلدية على رأسها شيخ منتخب بعدها قررت إحداث نيابة العمالة في سنة 1858م واستمر عهد الاحتلال (بلحميسي ، 2007، صفحة 327).

**III- النسيج العمراني لمدينة المدية إبان الحكم العثماني:**

اهتم المسلمون منذ عصر الفتوحات الاسلامية بإنشاء مراكز حضارية هامة وفق لمخطط مسبق ومدروس، وهذا ما انتهجه العثمانيون خلال استقرارهم بمدينة المدية لتكون بداية مخططاتهم تخطيط مسجدًا أو جامعًا كعصب حيوي ينتهي بشوارع وأزقة وتجمعات سكانية.

وإن أهم ما يستدعي الانتباه في العمارة العثمانية في الجزائر ومساكنها عامة، أن واجهاتها تقع في الأزقة الضيقة بعيدة عن مواجهة الشوارع الكبرى، فلا يمكن لأحد الاطلاع على ما بداخلها (عقاب ، 2002 ، صفحة 106)، وعليه، سنتناول العمارة الدينية في مدينة المدية والمتمثلة في كل من الجامع المالكي والجامع الحنفي ومئذنة التي بقيت من الجامع الأحمر وضريح سيدي الصحرابي ثم نتقل بعدها إلى العمارة المدنية أين سنتعرف على قصر الباي مصطفى بومزراق وخصاصه والمنازل والحمامات وأسوار المدينة.

**III.1- العمارة الدينية:**

**- الجامع المالكي:** المعروف حاليا باسم الجامع الوسطاني، وهذا نتيجة توسطه المدينة حيث بناه الأتراك سنة 942هـ-1535م، يقال أنه خلال فترة حكم الباي بومزراق آخر بايات مدينة المدية، قد ألحق الجامع بقصره وكان يربط بينهما باب فقط، وهذا ما جرت العادة عليه، أن تكون دار الإمارة قريبة من الجامع أو ملاصقة به، وقد تعرض الجامع للهدم في سنة 1399هـ-1979م، و أعيد بناءه في سنة 1402هـ-1982م، ليسمى بعدها بالجامع الإمام مالك. (فخار ، 2008 ، صفحة 11)

**- الجامع الحنفي:** المعروف بالجامع الفوقاني وعرف أيضا بجامع سي فضيل نسبة إلى الإمام الذي كان يدرس به، بني الجامع سنة 1121هـ-1709م، يشبه في هندسته الجامع المالكي إلى حد كبير، استولى عليه المستعمر الفرنسي بعد دخولهم للمدينة، ولم يبق من الجامع الحنفي

الأصلي سوى جداره الجنوبي ومئذنته التي رمت سنة 1429هـ-2008م على يد السلطات المحلية.

وغيرها من الجوامع، دون أن ننسى الجامع الأحمر وجامع القصبية، فقد وصل عددها في إلى اثنتي عشر جامعا وزاوية، قام الجيش الفرنسي مباشرة بعد دخوله المدينة بتخريبها، وتحويلها إلى ثكنات ومصحات عسكرية ومخازن للأسلحة والمؤونة.

- **مئذنة الجامع الأحمر:** تقع المئذنة في الجنوب الشرقي للقصبية القديمة لمدينة المدينة وتحديدا في الساحة المعروفة حاليا بساحة بولوغين، تم بناء الجامع الأحمر ومئذنته في سنة 1213هـ بناء على النقيشة الموجودة في الموقع والتي تحمل الكتابة التذكارية والتي تقول: «اللهم تقبل من عبيدك حسن باي بن خليل ما مننت به عليه من بناء هذا المسجد واجعل عدة له ما بين يديه، بسم الله عبدا قال أمين كلما رفع نظره إليه، 1213 من هجرة المصطفى صل اللهم وسلم عليه».

تتخذ المئذنة، شكلا مضلعا مثل أشكال المآذن العثمانية، طولها 10 م ويعلوها جوسق قلبي الشكل الذي يبلغ ارتفاعه 1.60م، وهو أسطوانتي الشكل في الحين الجزء الذي يليه مخروطي الشكل تعلوه ثلاثة فتحات، بما مدخل صغير عرضه 65 سم وارتفاعه 1.45 م يؤدي إلى سلم حلزوني تبلغ عدد درجاته فيه 46 درجة، وتم بناء المئذنة من مادة الاجر المملوء الخالية من العناصر الزخرفية، وقد رمت المئذنة من طرف السلطات المحلية حتى يعيد الاعتبار لها بعد ما عرفته من تصدعات وحالة حفظ على عموم كانت سيئة.

- **ضريح سيدي الصحراوي:** يعتبر من أهم المباني العثمانية التي لاتزال معلمه قائمة إلى يومنا هذا، لكن تأريخ بناءه يبقى مجهولا أمام غياب الوثائق والمصادر المكتوبة باستثناء الروايات التي نسبت إليه، كما أن الاسلوب البنائي مشابه تماما لنمط الاضرحة العثمانية، يقع هذا المبنى خارج أسوار القصبية القديمة من الجهة الغربية للمدينة، يحده من الشمال طريق عام ومن الجهات الثلاث الباقية مجمعات سكنية حديثة.

يتخذ المبنى شكل مربع يحيط به جدار خارجي الذي بني في فترة لاحقة من أجل حمايته، يحتوي على أربعة نوافذ، يتم الوصول إلى الضريح بواسطة مدخل صغير نحو الفناء مباشرة، يحتوي في زاويته الشرقية على غرفة مغطاة بسقف خشبي من الداخل مستطيلة الشكل مقاساتها (6م × 2.3م)، كانت تستخدم كمخزن، أما غرفة الدفن فهي مربعة المساحة، تضم قبة محمولة على أربعة عقود ركنية، مضادة بأربعة نوافذ، وتحتوي على ثلاثة خزائن جدارية مقاساتها (1.05م × 0.75م)، ويتوسط الضريح قبر الولي الصالح سيدي الصحراوي رحمه الله.

### III.2- العمارة المدنية:

- **قصر الباي مصطفى بومزراق:** يقع في وسط المدينة على موقع استراتيجي هام، تحديدا في القصبة بالحي القديم المعروف بالحي المعروف بالروابلي، يحده من الشمال والشرق شارعان، شارع ولد حاوي علي وشارع الإخوة فحار، وهذا الأخير يفصل القصر عن الجامع المالكي، ومن الجنوب الساحة العامة نجد ساحة الشهداء المعروفة بساحة جنرال منذ العهد الفرنسي، كما تطل واجهة الغربية للقصر على الإسطبل، مكان مربط الخيل ومأكله والذي استغله المستعمر مكانا لحفظ الأسلحة والذخيرة العسكرية وحاليا استغل مكتبة وملحقا للمتحف، يعود بناء القصر إلى الباي مصطفى بومزراق، آخر بايات التيطري 1819م-1830م، وفترة بنائه ما بين 1819-1821م (Ammar Mouhoub, 1972, p. 136)، ويقال أنه كان مقر إقامته الشتوية وكانت اقامته الصيفية بالحوش الموجود خارج أسوار المدينة.

يتربع قصر باي التيطري على مساحة تقدر ب 880م<sup>2</sup> بما فيه الساحتين، والشكل المعماري للقصر مستطيل، بني بمادة الحجر الأصفر (de tuf) بالأطر والاعمدة ومادة الجص في الأقواس وأعمدة غرف القصر، ففي وسط الإطار، نجد بابا خشبيا مقاساته (1,92م × 1,13م)، ذو مصراع واحد، مصنوع من خشب العرعار الغليظ ذو

النوعية الجيدة به مسامير نحاسية بارزة ذات رؤوس دائرية ، يتخلل الباب كوة مسيجة عموديا وأفقيا مقاساتها حوالي (7,35م×33,2م)، تعد بمثابة مرقب تسمح برؤية الطارق كما نجد تحت هذه الفتحة قفل حديدي ذو شكل لولبي، وبعد اجتازه نجد سقيفتين رئيسيتين، الأولى أمامية والثانية تتصل مباشرة بأروقة الصحن، ويتم الوصول إلى السقيفة الأولى من المدخل الأصل وهي عبارة عن حجرة صغيرة مستطيلة الشكل مقاساتها (13,4م×2,86م)، أما السقيفة الثانية فهي مربعة الشكل مقاساتها (7,3م×3,93م)، وتفتح هذه السقيفة على الأرفة السفلية، ويتضمن القصر على طابقين (الطابق الأرضي والطابق العلوي)، هذا النمط الإنشائي تميزت بها العمارة الشرقية، فمن خلال الاكتشافات الأثرية في بلاد الرافدين، بينت وجود مباني ذات طابقين مشابه تماما لهذا النمط الطابق الأرضي يشمل على مرافق صحية ومعيشية وغرف خاصة بالضيوف بينما الطابق العلوي مخصص لغرف النوم، ويتوسط صحن القصر الذي يبلغ مقاس (10.5م×8.5 م)، نافورة داخل حوض مثن الأضلاع من مادة الرخام، تتوزع على أروقة القصر أعمدة حلزونية وأخرى ذات خطوط منكسرة على أركانه دعومات مستطيلة الشكل في حين عقودها حذوية منكسرة، أما التيجان فهي كورنتية زحرفتها محورة عن الطبيعة، في كل طابق، نجد أربعة أروقة، عرض الرواق الواحد 1.90م وارتفاعه 3.15م، كما يحتوي على مجموعة من الغرف في كلا الطابقين وحمام في الركن الشمال الشرقي من الطابق الأعلى مباشرة فوق المطبخ، هذا النمط من البناء هو تقليد قديم للمنازل في مختلف العصور من مناطق العالم.

شهد قصر باي التيطري عمليات ترميم وتهيئة، في شهر ماي 2004 إلى غاية 2005م (رغم تحفظنا على هذا النوع من الترميم) تحت إشراف مكتب الدراسات المسمى بـ "ورشة الأبعاد الثلاث"، مكتب الهندسة المعمارية والتراث، وذلك بعد إبرام مجموعة من الاتفاقيات مع الجهات المختصة، ليستغل كمتحف وطني عمومي للفنون والتقاليد الشعبية للمنطقة.

- المنازل: تركز المدينة في عمرانها على بنايات قديمة ذات منفعة عامة، يبدو أن المركز الأكثر نشاطا هو منزل الباي الريفي الذي نبجده على بعد 1.5 كلم جنوب شرق المدينة. فجنان الباي الذي يقع خارج أسوار المدينة، كان منزها للباي صيفا ومصلى للأهالي حيث يقيمون فيه صلاة الاستسقاء ويصلون على موتاهم ويشيعون به جنازتهم، ومازالت إلى اليوم هذا جدران رحي هوائية في أعالي المصلى، رمتها السلطات المحلية سنة (1428هـ-2007م)، ميزتها أنها تدور بالريح لتطحن القمح والشعير وتجرش البرغل.

وعلى عكس العمائر العثمانية في مدينة الجزائر أين نجد سطوحها مستوية استغلت كمساحة شاغرة في قضاء حاجاتهم الاجتماعية (Marcais, 1926-1927, p. 804) يعتبر التسقيف بالقرميد كتغطية خارجية من بين أهم العناصر المعمارية المميزة في مدينة المدية، وهذا ما يذكرنا تماما بالعمارة التركية في تركيا، حيث يلعب التسقيف بالقرميد في العمارة عامة دورا هاما في إعطاء المتانة والحماية من العوامل الخارجية هذا من جهة ويزر بعدها الفني والجمالي من جهة أخرى، فنلاحظ أن نمط سقف القصر جملونيا أو مائل من الجهتين هذا النوع من الأسقف متلائم تماما في مواجهة الطبيعة القاسية بالمدينة خاصة مع تساقط الثلوج بكميات هائلة ما يمنع تكس الثلوج عليه وبالتالي يسهل من خلاله عملية انسياب الماء.

- الحمامات: بنيت في زقاق المدينة حمامات متكونة من غرف متدرجة في درجة حرارتها (الباردة، المعتدلة والساخنة) ومختلفة في وظائفها، أهمها الغرفة الساخنة أين تنطلق من خلال قنوات تحت الأرض بخار الماء الساخن، تتوسط الغرفة السرة وهي مصطبة مرتفعة عن أرضية القاعة توضع فيها المتناشف كما نجد البرمة لتسخين الماء بجمرة النار القادمة من الفرناق أو الفرنق.

- الاسوار: في الأخير، كان يحيط بمدينة المدية أسوارا لها خمسة أبواب، تغلق ليلا وتفتح مع طلوع النهار وهي: باب البليدة والذي يسميه بعضهم باب الجزائر، كان يقع في طريق

الجزائر، باب الأقواس غرب المدينة وهو الباب الوحيد الذي بقي قائما، باب القرط أو باب الحدائق، يقع بين البابين السابقين، باب سيدي الصحراوي يحد المدينة جنوبا، باب البركاني على مقربة من ضريح الولي الصالح سيدي محمد أبركان.

## VI - الخاتمة:

لقد ظهر لنا جليا، أن مدينة المدينة المدية، اكتست أهمية بالغة إبان الحكم العثماني فلم تكن قاعدة حربية أو معسكر للجند فحسب، وإنما من خلال دراسة نسيجها العمراني نجد أنها كانت مدينة متكاملة حيث تتوفر على جميع متطلبات الاستقرار بها من مقر للإمارة وجوامع عريقة ومنازل جميلة ذات طوابق، يتوسطها صحن مزين بنافورة رخامية بالإضافة إلى حمامات ومحلات وأسواق تجارية، ومن أبرز النتائج المتحصل عليها:

- أن الموقع الاستراتيجي لمدينة المدية لعب دورا مهما، مما شغل اهتمام وأنظار القادة والزعماء من أجل الظفر بها.

- إن مكانة البايات وثقل وزهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي في الدولة الجزائرية إبان الفترة العثمانية، جعلت من مقر إقامتهم أو إمارتهم ذات خصوصية وقيم معمارية وفنية مقارنة بالتجمعات السكانية الأخرى.

- النسيج العمراني لقصبة مدينة المدية متشابه إلى حد ما النسيج العمراني لقصبة مدينة الجزائر والاختلاف الذي نجده في الاسقف والتي تتميز بالتسقيف بالقرميد كتغطية خارجية عكس في مدينة الجزائر أين نجد سطوحها مستوية بهدف استغلال المكان لقضاء حاجاتهم اليومية، وقد تم إنشاء جميع المباني بمواد محلية تمثلت في الحجارة الدبشية (كلسيه أو رملية) ، استغل بعضها من البنايات الرومانية القديمة والمرتبطة فيما بينها بملاط من كلسي ممزوج ببقايا من القرميد في بعضها، كما أن أزقتها أكثر اتساعا وأقل انعطافا مقارنة بأزقة قصبة مدينة الجزائر.

الملاحق:



اللوحة رقم 1: قصر الباي مصطفى بومرزاق (تصوير الباحثة).



اللوحة رقم 3: باب الاقواس  
(تصوير الباحثة)



اللوحة رقم 2: حمام سليمانى (تصوير  
الباحثة).

–الشروحات والتعليقات:

التعليق رقم 01: سالم التومي هو زعيم سكان أهل متيجة، يعود نسبه إلى قبيلة الثعالبة التي هي فرع من مقل، استولى سالم التومي على الحكم عندما احتل الإسبان بجاية سنة (916هـ-1510م). ينظر: حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر-، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، لطبعة الثانية، لبنان، 1983، ص39.

التعليق رقم 02: مصطفى بومرزاق آخر بابايات التيطري، كان ضابطا ماهرا، استطاع إخضاع قبائل أولاد شعيب وأولاد مختار وأولاد افرج وأولاد نايل وإجبارها على دفع الضرائب، كما شارك في الباي في وقعة اسطاوالي ضد الاحتلال الفرنسي بعد الهزيمة عاد إلى المدية ففوجئ بتمرد الأهالي عليه، نحت ثرواته التي كانت بجنانه من خيل وبغال... انسحب بومرزاق مدة من المدية ثم عاد إليها ثم غادرها إلى أن توفي بالإسكندرية. ينظر:

Federmann, Henri., & Baron, Henri. (1865). *Notices sur l'histoire et l'administration du beylik de titeri* (N0. 09). in *Revue Africaine*.280-297.

**التعليق رقم 03:** الأمير عبد القادر (1222-1300هـ/1807-1883م): هو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد المختار الحسني، أمير ومجاهد وشاعر وأديب وعالم، ولد بالقيطنة بمعسكر، أدى فريضة الحج مع والده سنة 1241 هـ وزار بغداد ودمشق ثم عاد للجزائر سنة 1833م، بايعه الجزائريون وتولى أمر الجهاد، ضرب عملة سماها المحمدية، كما أنشئ مصانع للأسلحة وملابس الجند. ينظر إلى: معجم أعلام الجزائر، ص 103-104.

**التعليق رقم 04:** الدرقاوي (ت: 1312هـ/1895م): هو محمد بن عبد الله الدرقاوي ينتمي لقبيلة أهل رويسة قرب تيموشنت، بدأ حياته كمعلم للقرآن سنة 1840م بإحدى زوايا تلمسان، وقد أعلن محمد بن عبد الله الدرقاوي الجهاد على النصارى، قدم المدينة في أبريل 1835 مطالباً من سكانها، أن يسلموا له يهود المدينة وإباضيها، امتنع السكان ثم صالحوه وسمحوا له بدخول المدينة ومنها انطلق إلى الجزائر العاصمة لم يرض الأمير عبد القادر بغيره في تزعم الجهاد ليصطدم به في حوش عمورة على بعد 12 كيلو متراً من ربة جندل. ينظر إلى: معجم أعلام الجزائر، ص 188.

ومولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 325.

## المراجع:

### باللغة العربية:

1. الوزان، حسن . (1983). وصف افريقيا . (محمد حجي ، و محمد الاخضر ، المترجمون) (ط. 2). لبنان: دار الغرب الإسلامي.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن. (1999). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (المجلد 7). بيروت: دار الكتاب اللبناني.
3. الجليلي، عبد الرحمن. (1965). تاريخ الجزائر العام. الجزء الاول. بيروت: دار مكتبة الحياة.
4. ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن. (1998). الكامل في التاريخ. (محمد يوسف الدقاق، مراجعة وتصحيح). المجلد السابع. بيروت: دار الكتب العلمية.
5. عقاب، محمد الطيب. (2002). لمحات عن العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر (ط. 1). القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
6. السيد، محمود. (2007). تاريخ دولتي المرابطين والموحدين. الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة .
7. سعديوني، ناصر الدين. (1984). دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني. الجزائر: مؤسسة الوطنية للكتاب.
8. سليمان، أحمد . (1995). مدينة المدية ونواحيها في العهد القديم. العدد التاسع. الجزائر، معهد التاريخ: مجلة الدراسات التاريخية، ص 136-159.
9. سليمان، أحمد. (2006). تاريخ المدن الجزائرية عبر العصور. الجزائر: دار القصبة للنشر، ص 151.
10. اسكندر، محمد المختار. (1986). المدية بين القديم والحديث. الجزائر: منشورات وزارة الثقافة والسياحة، ص 19.
11. فخار، محمود ابن مصطفى . (2008). موجز تاريخ المدية. المدية : مديرية الثقافة لولاية المدية، ص 11-13.
12. بلحميسي، مولاي . (2007). مدينة المدية عبر العصور. اعداد وتقديم عبد الرحمن الجليلي، تاريخ المدن الثلاث، الجزائر، المدية، مليانة (ط. 1 ، ص 313-320). الجزائر: دار الأمة.

13. سعيدوني، ناصر الدين . (2000). عصر الأمير عبد القادر. مؤسسة جائزة الإبداع عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، ص77.
14. مالستان، هاينرش فون. (1972). ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا. ( أبو العيد دودو، ترجمة) الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص134.
15. بوعزيز، يحيى. (1996). ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين. الجزائر : منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ص ص 38-39.
- باللغة الاجنبية:**
16. Ammar Mouhoub, Hakima. (1972). **les Premières résistances, Médéa et le Titteri au lendemain de 1830**. Alger.P136.
17. Gsell, Stéphane. (1997). **Atlas archéologie de L'Algérie** (T. 02). Médéa: Service géographique de l'armée.P4-48.
18. Pharaon, Florian. (1856). **Médéa**. Alger: Revue Africaine.Office des publications universitaires.P139.
19. Federmann, Henri., & Baron, Henri. (1865). **Notices sur l'histoire et l'administration du Beylik de Titeri** (N0. 09). in Revue Africaine.280-297.
20. Golvin, Louis. (1957). **Le Maghreb central à l'époque des Zirides,Recherches d'Archéologie et d'histoire**. paris : Arts et Métiers Graphiques.P57
21. G'yver. (1986). **Lamdia**. Dans E. leiden, **Encyclopédie de L'islam** (p. 1006). paris: maison neuve.
22. Kaddache, Mahfoud. (1992). **L'Algérie durant la période ottomane**. Alger: office publication.P72.
23. Marçais, Georges. (1926-1927). **Manuel d'Architecture Musulmane**. paris.P804.